تمازج الثقافتين الشرقية والغربية في مذكرات شاهد القرن لمالك بن نبي

الدكتور/حسن كاتب

أستاذ محاضر ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها

بجامعة منتوري ـ قسنطينة ـ الجزائر

1 ــ الكاتب :

مالك بن نبي مفكر وأديب جزائري وُلد بقسنطينة إحدى كبريات المدن سنة 1905، حين كان قد مضى على الوجود الاستعماري الفرنسي بالجزائر ما يقارب الخمسة والسبعين عاما. وقد كان لهذا الوجود انعكاساته الحاسمة على أسرته التي تعاقبت مآسيها، وانتهت بها تقلبات الدهر إلى الاستقرار، قبل ميلاد مالك بن نبي بنصف قرن، بعيدا عن موطنها الأصلي قسنطينة، أي في مدينة تبسة، تلك المدينة الصغيرة التي تقع بوسط الجنوب الشرقي الجزائري، والتي تمتزج فيها البداوة بالتحضر. وهكذا، وفي حوالي السادسة من العمر، وبعد تدهور الأحوال المادية لأقاربه الذين كانوا يتولون رعايته بقسنطينة، نُقل مالك بن نبي نفسه إلى مدينة تبسة حيث مستقر أسرته.

ومن المؤكّد أن مشاهدته في هذه المرحلة المبكرة من عمره بعض أسرته، وهم يهاجرون نحو طرابلس الغرب فرارا من المضايقات الاستعمارية التي اشتدت وطأتها عليهم، أخذت تقوده مبكراً "إلى تحسّس العديد من المفارقات والتغيرات التي يحدثها المستعمر في المجتمع الجزائري"[1] وفي هذه المدينة البعيدة نسبيا عن صخب الحياة في المدن الكبرى، وبين أسرة محافظة تتكون من أب يعمل موظفا صغيرا (خوجة، أي حاجب تقريبا) في إحدى المصالح الإدارية، وأم تقضي أغلب وقتها في خياطة ملابس تُسهم بثمنها في توازن ميزانية الأسرة، وجدة صالحة تفرغت للعبادة، وكان لحكاياتها الهادفة وقصصها المشبعة بالمعاني الروحية والتوجيهات الأخلاقية أبلغ الآثار على حفيدها، كتب لمالك بن نبي أن ينشأ، وأن تتفتح مداركه، ويخطو الخطوات الأولى على هذه الأرض.

وقد أُدخل الكتاب لتعلم القرآن الكريم، ثم انتظم بعض الوقت في مدرسة فرنسية، مع التزامه بالمواظبة على الكتاب، مبكراً، قبل ابتداء دروس المدرسة الفرنسية في الثامنة من كل صباح. وبعد انقضاء مرحلة التعليم الابتدائي هذه، اقتضى نظام

التعليم المتاح لأبناء الموظفين الجزائريين الصغار يومذاك إدخاله مدرسة من نوع خاص أنشأت السلطات المستعمرة ثلاثا منها ببعض كبريات المدن الجزائرية : قسنطينة والجزائر وتلمسان لتكون إطارات تتولى شؤون مصالح القضاء الشرعي المختلفة على الخصوص، وسائر الشؤون المتصلة بتسيير حياة الأهالي، أي المسلمين الجزائريين، بوجه عام. وقد كان التعليم في هذا الضرب من المدارس قوامه قدر معقول من العلوم الشرعية واللغوية العربية يلقيه مشايخ موظفون، وقدر آخر من التعليم في مختلف المواد العلمية واللغوية الفرنسية، يتولى الاضطلاع بتقديمه أساتذة فرنسيون.

وهكذا قُدر لمالك بن نبي أن يتلقى مبادئ اللغة العربية والعلوم الشرعية على يد شيخ يدعى عبد المجيد، واللغة الفرنسية والحساب والعلوم الطبيعية على يد معلم فرنسي يدعى مارتن. وفي هذه المرحلة من حياته التي قضاها بمدرسة قسنطينة الفرنسية الإسلامية ـــ هكذا كانت تسمى ـــ، أتيح له أن يكون قريبا ـــ مكانيا على الأقل ـــ من بعض صناع تاريخ الجزائر الحديثة، وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان يشاهده يوميا وهو في طريقه إلى مكتب جريدته الشهاب، يمر أمام مقهى يجلس فيه مالك بن نبي. ولما طويت صفحة هذه المرحلة من حياة بن نبي، كان لزاما أن تبدأ مرحلة حياته العملية، إذ أنه تمكن في مارس 1927، وبعد جهد وطول انتظار، من الظفر بمنصب عون عدل بآفلو، وهي مدينة صغيرة بالجنوب الغربي الجزائري، يغلب على سكانها الطابع الرعوي، ولم يلبث به إلا عاما واحدا، ثم نُقل إلى مدينة شلغوم العيد الواقعة على مبعدة 50 كيلومترا من قسنطينة، غير أنه سرعان ما استقال من منصبه هذا انتصارا لكرامته التي رأى أنها أهينت من قبل رئيس له من كورسيكا. فيمم وجهه بعد ذلك شطر العمل اليدوي البسيط في فرنسا التي عاد منها خائبا، ثم التجارة في بلدته تبسة، وقد تقلبت به الحياة هنالك أربع سنوات، إلى أن قرر والداه في سبتمبر من سنة 1930 إرساله إلى فرنسا مرة أخرى، لا للعمل هذه المرة، بل لاستكمال دراسته العليا في الحقوق، لتولي المحاماة، وكان من المتعيّن عليه قبل ذلك قضاء عام

تحضيري بمعهد الدراسات الشرقية، غير أنه لم يُوفق في دخوله، لأن الدخول إليه ـ كما يقول ـ "لا يخضع بالنسبة لمسلم جزائري لمقياس علمي وإنما لمقياس سياسي"[2]. فاضطر لتغيير وجهته لدراسة اللاسلكي أولا، ثم الميكانيكا والكهرباء لاحقا، ليتخرج مهندسا في هذا التخصص. وفي هذه المرحلة من حياته تزوج سنة 1931 فرنسية أسلمت بعد اقترانها به. وكانت له يومذاك اهتمامات ورؤى فكرية وانشغالات ثقافية وأنشطة وطنية مختلفة، ونتيجة لذلك أحكمت عليه دوائر الرصد الاستعماري حصارها، الذي طال أسرته أيضا حيث حُرم والده الموظف من عمله، فلم يظفر بفرصة تدريب أو عمل بصفته مهندسا، فحاول الهجرة إلى الحجاز أو أفغانستان، أو ألبانيا، أو مصر للتعلم في الأزهر، لكنه أخفق في كل ذلك.

وقد دعاه بعد ذلك بعض بني بلدته من التجار المتنقلين بين الجزائر وفرنسا ـــ وقد التقى بهم ذات صيف أثناء العطلة في تبسة ـــ إلى تولي الإشراف على مركز ثقافي تعليمي أنشأه العمال الجزائريون المغتربون بفرنسا، فاشتغل بتعليم أولئك العمال بعض الوقت، إلا أن السلطات وضعت حدا لنشاطه، مما حتم عليه العودة إلى الجزائر، لكنه وجد الأبواب موصدة في وجهه مجددا، ومن كل صوب، فقفل راجعا إلى فرنسا في 22 سبتمبر 1939، والسماء ملبدة بغيوم الحرب العالمية الثانية. وبعد دخول الألمان باريس، حاول، مع بعض أقرانه من أبناء شمال إفريقيا المقيمين في باريس تكوين حركة لتحرير بلادهم، فأُدخل السجن في أوت (أغسطس) سنة 1944، ليطلق سراحه في ماي 1945، ثم يعاد إليه لاحقا بعد حوادث 08 ماي 1945 الدامية التي عمت مدن الجزائر. وبعد إطلاق سراحه طغت عليه الاهتمامات الفكرية والثقافية، فشرع في التأليف لتسجيل آرائه وملاحظاته المتعلقة بمشكلات الحضارة في المجتمعات الإسلامية.

ولقد كان باكورة مؤلفاته كتابه الشهير : الظاهرة القرآنية سنة 1946 ثم روايته الوحيدة : لبيك سنة 1947، ثم شروط النهضة سنة 1948 وأخيرا وجهة العالم الإسلامي سنة 1954. وقد بقي في باريس إلى سنة 1956، حين تمكن من السفر إلى

الشرق لأداء فريضة الحج ثم الالتحاق بالقاهرة، ليضع نفسه في خدمة الثورة الجزائرية التي اندلعت قبل ذلك في الفاتح من نوفمبر 1954. ومنذ ذلك التاريخ لم تطأ قدماه أرض فرنسا حتى خروجه من هذه الدنيا. أما زوجته الفرنسية، التي لم يرزق منها بأولاد، فقد ظل على علاقة بها بالمراسلة، وكان يرسل إليها مساعدات مالية وفاءً وحفظا لحق العشرة الزوجية[3]. وكانت السلطات المصرية خصصت له مرتبا شهريا ينهض بأعبائه المادية، مما أتاح له التفرغ للعمل الفكري، والإشراف على نقل كتبه إلى العربية، والمضي في تأليف غيرها، وعقد حلقات وندوات جمعت صفوة من الشباب التفت حوله، لتنهل من ثقافته الواسعة وتقف على رؤاه الثاقبة ونظراته العميقة في شؤون النهضة والإصلاح. وهكذا تعرف عليه العالم العربي لأول مرة لدى صدور ترجمة كتابه وجهة العالم الإسلامي على يد شعبان بركات تحت اسم مستقبل الإسلام (وجدير بالذكر أن الدكتور عبد الصبور شاهين قد ترجم هذا الكتاب لاحقا تحت اسم وجهة العالم الإسلامي، ثم أعاد ترجمته رمضان لاوند تحت اسم نداء الإسلام). ثم تتابعت مؤلفاته فصدرت الفكرة الإفريقية الآسيوية سنة 1956، وحديث في البناء الجديد سنة 1957، ومشكلة الثقافة سنة 1959، والصراع الفكري في البلاد المستعمرة (الذي صدر لأول مرة بالعربية مباشرة)، وفكرة كومنولث إسلامي سنة 1960، وتأملات في المجتمع العربي سنة 1961، وميلاد مجتمع سنة 1962. ومن القاهرة أخذ يتحرك صوب بلدان المشرق العربي الأخرى، فزار سوريا ولبنان سنة 1959 وألقى في محافلهما الثقافية العديد من المحاضرات. ولم يلهه الانهماك في بلورة مشروعه الفكري عن الاهتمام بقضية بلده الذي كان يخوض غمار المواجهة الفاصلة مع مستعمريه، فقد جرد قلمه لإبلاغ صوت الثورة الجزائرية إلى العالم، فنشر رسالة بعنوان النجدة : الشعب الجزائري يباد S.O.S ALGERIE، كما وجه خطابا إلى رئيس وزراء فرنسا يومذاك غي موليه[4].

وبعد استعادة الجزائر حريتها وسيادتها عاد مالك بن نبي إليها سنة 1963، وتبوأ منصب مستشار التعاليم العالي فرئيس جامعة الجزائر فمدير التعليم العالي حين كانت وزارة التربية الوطنية تشرف على مراحل التعليم الثلاث : الابتدائي والثانوي والعالي. لكنه ما لبث إلا قليلا حتى استقال من منصبه الأخير سنة 1967، ليتفرغ مجددا للعمل الفكري والدعوة إلى نهضة العالم الإسلامي جاعلاً محور نشاطه الدعوة إلى التخلص من القابلية للاستعمار، فكانت له ندوة أسبوعية في داره في الجزائر العاصمة تحضرها كوكبة من طلاب الجامعة والمثقفين، كما كانت له رحلات مختلفة قادته إلى الصين حيث التقى مع زعيمها ماوتسي تونغ مطولا، وإلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج ثانية سنة 1972، وفي طريق ذهابه وعودته كان يتوقف في دمشق حيث كان له محبون يحتفون به ويتلهفون على الاستماع إليه، وإلى الكويت وطرابلس الغرب للمحاضرة والحوار الفكري...

وفي هذه المرحلة صدرت كتبه الأخرى : آفاق جزائرية سنة 1964، مذكرات شاهد القرن (الجزء الأول ـــ الطفل) سنة 1969، مذكرات شاهد القرن (الجزء الثاني ـــ الطالب) سنة 1970، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي سنة 1971، المسلم في عالم الاقتصاد سنة 1972، ودور المسلم في الثالث الأخير من القرن العشرين سنة 1972 أيضا. وبعد هذه الرحلة المضنية، آن للفارس أن يترجل، لقد وافته المنية بالجزائر في 31 أكتوبر 1973 مخلفا وراءه آثارا فكرية أخرى مخطوطة، لم يصدر منها إلا كتاب بين الرشاد والتيه سنة 1978. ومن هذه الآثار المخطوطة : الجزء الثالث من مذكرات شاهد القرن، ومجالس دمشق، وهي محاضراته التي ألقاها في العاصمة السورية، والجزء الثاني من ميلاد مجتمع، ومجالس التفكير، وهي ملخص لمجموعة من ندواته التي كان يعقدها في داره منذ سنة 1967. ويذكر بعض الدارسين أنه كانت لمالك بن نبي أيضا تعليقات على بعض المؤلفات القديمة كتاريخ الطبري، مقدمة ابن

خلدون، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد[5]. وكثير من كتب مالك بن نبي مترجم إلى اللغات الفارسية والتركية والأردية.

2 ــ المدونة :

مذكرات شاهد القرن بجزأيها، هي السيرة الذاتية التي كتبها مالك بن نبي لتسجيل أحداث مرحلة طفولته وصباه ومرحلة شبابه. وإذا كان الجزء الأول الذي صدر بالفرنسية في الجزائر سنة 1965، يتناول مرحلة طفولته وصباه منذ مولده وسنواته الأولى في قسنطينة، ثم نشأته في تبسة، ثم عودته إلى قسنطينة لمتابعة التعليم الثانوي، فإن الجزء الثاني الذي صدر في بيروت، بالعربية مباشرة سنة 1970 يبدأ من وصوله إلى محطة ليون بفرنسا لمتابعة دراسته العليا فيها ويُختتم بمشهد رحلة العودة إلى فرنسا، بعد محاولة غير موفقة للاستقرار بالجزائر والحصول على وظيفة ما بها. ولقد تولى نقل الجزء الأول إلى العربية الأستاذ مروان القنواتي وصدرت طبعته الأولى عن دار الفكر ببيروت سنة 1969، أي سنة واحدة قبل صدور الجزء الثاني بترجمة المؤلف، كما هو مسجل في الغلاف. غير أن الأستاذ عمر مسقاوي الذي حمله مالك بن نبي مسؤولية كتبه المعنوية والمادية في وصية سجلها في المحكمة الشرعية بطرابلس لبنان سنة 1971، وشرع في إصدار كل مؤلفاته تحت اسم ندوة مالك بن نبي، ارتأى إعادة إصدار مذكرات شاهد القرن بجزأيها في كتاب واحد، لكنه في ما يتعلق بالجزء الأول عدل عن ترجمة مروان القنواتي المشار إليها آنفا إلى ترجمة عمدها للدكتور عبد المجيد النعنعي مدير فروع الجامعة اللبنانية في طرابلس ــ لبنان، مع استفادة من جهود الأستاذ مروان قنواتي. وما كان هذا العدول عن الترجمة الأولى ــ كما يبين عمر مسقاوي ــ إلاّ بدافع الحرص على المواءمة بين هذا الجزء والجزء الثاني الذي كتبه مؤلفه بالعربية مباشرة، وذلك بمحاولة السعي قدر الاستطاعة إلى سلوك أسلوب مالك بن نبي نفسه كما تجلى في الجزء الثاني من هذه المذكرات[6]. والقارئ لهذه الترجمة الجديدة يجد أنها

أقل دقة من سابقتها في ترجمة المصطلحات، وكتابة بعض أسماء الأعلام والمواضع، والعبارات والصيغ ذات الخصوصيات المحلية، الأمر الذي يدفعنا إلى إيثار استخدام الترجمة الأولى عموما، مع الإشارة إلى استخدام الثانية عند الاقتضاء.

إن مذكرات شاهد القرن وثيقة ذات أهمية كبرى، لأنها ليست مجرد تسجيل لذكريات وتجربة شخصية رام المؤلف إشراكنا في استعادتها معه، وإعاشتنا في أجواء رومانسية حالمة تتفيأ أجواء ماض ولّى بلا ارتجاع... وليست سيرة ذاتية ابتغى بها كاتبها تحقيق توافق واتزان مفقودين لديه، وذلك بجعله "يعيش حياته الداخلية والخارجية العليا من خلال ذكرياته والكشف عن أسرار حياته الباطنية؛ وتأمل ذاته العميقة، بما فيها من ثراء داخلي، يمثل عالما أصغر"[7]. إنها قبل كل شيء شهادة يدلي بها مفكر خطت له الأقدار أن يعيش في قرن حافل بتحولات قلبت تاريخ البشرية رأسا على عقب، وأن يعايش مدنيته ويفهمها من الداخل، وبعمق، حين انتقل إلى بلاده، وذلك ما هو مبسوط في الجزء الثاني من سنة 1930 إلى سنة 1939، وإن كانت هذه المرحلة تمتد إلى ما بعد ذلك، لأنه ظل مقيما بفرنسا حتى سنة 1956. لقد كانت هذه المذكرات عبارة عن شهادة تحدثنا "عن حدود التلاقي بين حضارة مندفعة تجتاح ما أمامها، وحضارة أسلمت مقاليدها للتاريخ وغدت أجيالها في مهب الريح"، كما يقول عمر مسقـــاوي[8].

ولا ريب في أن صدور هذه الشهادة من رجل قُدر له أن يمتلك رصيدا من الثقافة الأصيلة ما فتئ يعمل على تنميته وتثميره، وتضافرت عوامل عديدة على تمكينه من التعمق في الثقافة الأخرى وتمثلها تمثلا واعيا، من شأنه أن يضفي على هذه الشهادة قيمة أكبر في ظل الظروف والملابسات التي ما زالت تعيشها مجتمعاتنا وهي تبحث عن السبيل الأمثل للنهضة واستجماع شرائط الانبعاث الحضاري.

وما من ريب أيضا في أن قارئ هذه المذكرات التي خطها قلم مهندس في الكهرباء والميكانيك له إلمام واسع بعلم الاجتماع وفلسفة التاريخ وما اتصل بهما من

علوم إنسانية، سيدرك للوهلة الأولى أنها تنم أيضا عن روح أديب وفنان يوصل أفكاره ورؤاه ويعبر عن طروحاته بلغة وصيغ تطفح بالجماليات وتفيض بالمشاعر والأحاسيس وتتوقف عند جوانب ولفتات لا ينتبه إليها ويتملاها إلا من أوتي حسًّا مرهفًا وذوقًا رفيعًا يملكه الفنانون وحدهم.

ولقد ارتأى مالك بن نبي منذ بداية مذكراته أن يتقمص روح الأديب، فيقدم لنا مذكراته من خلال قصة نسجها خياله عن الطريقة التي أوصلت إليه هذه المذكرات، حيث يروي أنه بينما كان مستغرقا في أداء صلاة العصر منفرداً، إثر انقضاء صلاة الجماعة في مسجد قسنطينة المسترجع حديثا إلى وظيفته الأصلية، بعد أن تحوّل حيناً من الدهر زمن الاستعمار الفرنسي إلى كاتدرائية، تناهى إلى مسمعه، وهو ساجد قد أطال السجود، وقع خطوات وراءه، ثم رأى رزمة ما تسقط قريبا من موضع سجوده. فلما فرغ من الصلاة مد يده إلى تلك الرزمة حسنة التغليف، وفضها، فإذا بها صفحات مكتوبة بخط رقيق غير أنه مقروء جيدا، وهي تحمل عنوانها في صفحاتها الأولى : مذكرات شاهد للقرن، وما إن مضى شوطا في قراءتها، مسجلا بكل تواضع أن كل جزائري يحسن الكتابة من أبناء جيله يستطيع أن يكتب مثلها، حتى وقف على اسم يتردد فيها، وهو الصديق، فقدر أنه يمكن أن يكون لمؤلفها. ولما كان عازما على ردها لصاحبها، مع استحالة العثور عليه، فقد خطر بباله أن أفضل طريق لردها إليها هو نشرها، فلعل ذلك هو رغبته بالذات. وقد اختتم هذه القصة الشاعرية بالقول : "فليتقبل القارئ إذن هذا الكتاب على أنه أفكار جزائري أراد أن يتحدث إليه من وراء حجاب محتفظا باسمه لنفسه"[9].

3 ــ تجليات المثاقفة في مضمون مذكرات شاهد القرن :

منذ الصفحات الأولى لمذكراته يبدو لنا مالك بن نبي مسكونا بهاجس واحد، هو هاجس الحضارة التي يرى أن شمسها قد غربت في مجتمعه، لتشرق في مجتمع آخر،

هو المجتمع الغربي الذي بسط سيطرته على مجتمعه بسبب ما ران عليه من أدران القابلية للاستعمار. إن مالك بن نبي يصور لنا ابتداءً معاناة الثقافة المغلوبة، الثقافة الإسلامية في صورتها البسيطة التي توارثها المجتمع الجزائري، وتتجسد تلك المعاناة بالخصوص في تفكك موطن أسرته الأول قسنطينة، قبل ميلاده، مطلع هذا القرن، هذا التفكك الذي يمثله اختفاء "تلك المشكاة التي كانت بجنب كل منـــزل، ويضع فيها سكانه، في الساعات المعينة، وجبات الفقراء حتى لا يضطروا للسؤال بالصوت الجهير"[10]، كما بدأ يتفشى على نطاق واسع تعاطي المسكرات، وأخذت تنمحي تقاليد التضامن الاجتماعي، المتمثلة على الخصوص في توافق الجيران على جمع حليهم وتقديمها للبنت الفقيرة كي تتحلى بها يوم زفافها، لقد ذهبت هذه العادة بدورها "يوم خُدع أصحاب البر الذين قدموا حليتهم لوليمة زفاف اصطُنعت من أجل مغالطتهم"[11].

لقد كان مالك بن نبي يسجل بعدسة المؤرخ عالم الاجتماع كثيرا من التحولات الاجتماعية الحاسمة التي لها انعاكاساتها على الصعيد الثقافي، وهي التحولات التي ينعتها بالتصعلك الفوقي والتدهور التحتي، مشيرا إلى أن هذا التصعلك بدأت ملامحه "حتى في التفاصيل الشكلية للرجال الذين تغيرت أزياؤهم في شوارع قسنطينة، لأنهم يتركون ملبسهم التقليدي من عمائم، وبرانس، وسراويل مطرزة، وبدأوا يلبسون البدلة الأوروبية أو من مخلفات أوربا المستوردة من مرسيليا"[12]. ولقد سجل مالك بن نبي أن هذه التحولات ما كان لها أن تحدث دون أن تترك أثرها الحاسم في القدماء من سكان مدينة قسنطينة، مثل جده الذي غادر الجزائر بسبب ذلك مصحوبا بأخ له، وابن آخر، غير والد مالك بن نبي الذي لم يستطع مرافقته لأن زوجته أبت مفارقة ذويها الذين استقروا بتبسة قبل نصف قرن.

إن هذا التدهور المتواصل لم يكن يواجه فقط بمثل هذا الموقف الهروبي، بل كان ثمة أجسام مضادة في الجسم الثقافي للمجتمع تبدي قدرا من الضراوة في مقاومتها مستمدة قدرتها على الصمود من ذلك المحفوظ لدى الأجيال من أخلاق كريمة وروح

سام لولاهما "ما كان تبقى شيء من ذلك الرصيد الذي لا يستطيع الوطن أن يعود بدونه إلى التاريخ"[13]. ويقدم لنا مالك نموذجا على ذلك ممثلا في جدته التي طالما غرست فيه حب الخير مصورة ما يقابله من جزاء، ونبذ الشر مبرزة ما يترتب عنه من عقاب، وطالما حدثته أيضا عن فضائل الصدقة في الإسلام، مستعينة في غرس ذلك كله بقصص مؤثرة. وسجل أن حكاياتها تلك هي التي دفعته، وهو صغير، إلى إنجاز عمل يراه فعلا أجدى عمل في حياته[14]، وهو انتزاعه من فمه قطعة من حلوى لذيذة، تسمى الرفيس، لم يكن أكل منها إلا ما يقارب نصفها، ليقدمها إلى فقير رفع عقيرته بالسؤال على باب بيتهم. وقد تنازل عنها، مع كونها وجبة استثنائية لم يكن يحظى بها إلا مرة واحدة في الأسبوع، كل جمعة، تعويضا عن شظف عيش يحياه بقية الأيام بسبب ضيق ذات يد أسرته، ذلك الضيق الذي أجبر والدته ذات يوم إلى أن تسلم إلى معلم المدرسة القرآنية، الذي كان يختلف إليه ابنها مالك، نظير أجرته، سريرها الخشبي.

إن هذه الثقافة المقهورة التي كان مالك بن نبي يؤرخ لانحسارها ومقاومتها تارة، واستبسالها في المقاومة والصمود تارة أخرى، هي التي كانت القاعدة التي انبنى عليها فكر مالك بن نبي نفسه، وقد تلقى أسسها من خلال التنشئة الاجتماعية الأسرية المشار إليها آنفا، ومن خلال الكتاب الذي كان يختلف إليه في فجر حياته، ومن خلال المسجد الذي كان يرتاده مع والده في تلك المرحلة من حياته في تبسة، ولكن الأمر لم يكن وقفا على ذلك. فقد أتيح له، كسائر أقرانه، أن يتلقى بعض مكونات هذه الثقافة عن طريق الرواة والقصاصين الشعبيين الذين كانوا يقصون المآثر الحربية للإمام علي أو لذياب الهلالي، في حومة السوق. كما أتيح له أن يتلقى لاحقا قدرا آخر من هذه الثقافة في المدرسة الإسلامية الفرنسية في قسنطينة التي تتلمذ فيها على يد الشيخ عبد المجيد، فتلعم منه حالات النحو وإنشاد بعض الأبيات من الشعر[15]، والشيخ المولود بن الموهوب الذي كان أحد كبار المصلحين، والذي كان يدرس علم الكلام والسيرة النبوية ويدرب فكره وروحه على اقتفاء السنة، على حد تعبيره[16]، والشيخ ابن العابد

الذي كانت دروسه في الفقه مذكرة ترد فكره إلى وسط عادل[17]. ولكن هذا التعليم النظامي لم يكن وحده هو المنهل الذي نهل منه مالك بن نبي أسس هذه الثقافة، فقد تشربها أيضا عن طريق القراءة. وقد حدثنا في مذكراته عن مواظبته، منذ كان في تبسة، على مطالعة صحيفة النجاح التي صدرت منذ عهد قريب في قسنطينة، والتي كان يرسله عمه في استعارتها من صديق له تصله إلى تبسة بانتظام، علما بأنه كان ينطقها بكسر النون ظنا منه أن هذا الشكل أكثر انضباطا مع قواعد النطق العربي، إلى أن تعلم لاحقا من الشيخ عبد المجيد نطقها خالية من اللحن[18]، وكذلك صحيفة الزهرة التونسية التي كانت توزع في الجزائر[19]، وصحيفة العصر الجديد التونسية كذلك والتي بدأت تصل أيضا إلى تبسة[20]. وحدثنا كذلك عن كتابين هامين يعدهما أبعد المنابع وأكثرها تعيينا لوجهته الفكرية[21]، وهما : الفشل الأخلاقي للسياسة الغربية في الشرق لأحمد رضا ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده بترجمة مصطفى عبد الرزاق متعاونا مع مستشرق فرنسي، وقد شهد لأولها الغني بوثائقه حول روائع المجتمع الإسلامي في أوج حضارته بأنه كان يعطيه معيارا عادلا لقياس فقره الاجتماعي الراهن الذي يبعث على الأسى، كما سجل أن ما في تمهيد مترجمي الثاني من معلومات عن غنى الفكر الإسلامي عبر القرون كان يعطيه نقطة استناد للحكم على فقره الفكري الهائل في الحاضر[22]. أما كتاب أم القارئ للكواكبي فقد قرأه في مرحلة لاحقة[23].

وينوه من جهة أخرى بقدر بالغ من الإكبار والتقدير بأفضال صديقه العبقري حمودة بن الساعي عليه، ذلك الصديق الذي ينعته تارة بأنه أسوته الحسنة ورائده الهادي[24]، ويخلع عليه طورا آخر لقبي المعلم والشيـــخ[25] لسعة ثقافته العربية والفرنسية ولطريقته في استخدام الآية القرآنية استخدام تفسير اجتماعي للحالة الراهنة للمجتمع الإسلامي، وهي طريقة أخذت بمجامع قلبه[26].

أما حواراته اليومية التي كانت تجري في مقهى، مع فئة من زملائه في الدراسة، فقد مكنته من تذوق العبقرية الشعرية الجاهلية ممثلة في امرئ القيس الذي أثار

اهتمامه، والشنفرى الذي انتزع إعجابه، وعنترة الذي جعله يحلم بالملحمة. وأما عبقريات الشعر الأموي والعباسي فقد خلبت لبه، إذ مارس عليه، على حد تعبيره، الفرزدق والأخطل ألوانا شتى من الإغراء الروحي. ومكنه الاتصال بجماعة أخرى ذات نزوع إلى المدرسة الحديثة من التمتع بشعر حافظ إبراهيم والرصافي، واكتشاف شعراء المهجر العرب، ذات يوم، جبران خليل جبران، وإيليا أبي ماضي. على أنه يذكر بعد ذلك أن ترجمة البحيرة للامارتين، قد كشفت له ولأقرانه لونا جديدا، هو لون الأدب الفرنسي المترجم إلى العربية على يد أساتذة الأدب العربي ومعلميه، وعلى رأسهم المنفلوطي الذي جعلتهم نظراته وعبراته يتنفسون الصعداء، ويطلقون الزفرات الحرى ويلملمون العبرات ويكفكفونها[27].

ومهما يكن من أمر فإن روافد هذه الثقافة العربية الإسلامية المهددة بالزوال حينذاك كانت متعددة في هذه المرحلة الأولى من حياة مالك بن نبي. ولكن الثقافة الأخرى، الثقافة المسيطرة، بقوة الحديد والنار، نعني الثقافة الغربية بوجه عام، والثقافة الفرنسية على الخصوص، كان لها حضورها القوي المؤثر في تشكيل وعي مالك بن نبي وتحديد وجهته الفكرية، في هذه المرحلة الأولى من حياته.

لقد دخل المدرسة الفرنسية في بلدة أسرته تبسه، حيث تلقى مبادئ اللغة الفرنسية على يدي مدرسة فرنسية تُدعى مدام بويل وقد قال عنها إنه ما يزال يحتفظ إلى اليوم "بذكرى حنية نحوها". وبعد انتقاله إلى قسنطينة كان لأحد معلمي المدرسة الفرنسية الإسلامية، ويُدعى السيد مارتن، بعض التأثير عليه، غير أن التأثير الحاسم في هذه المرحلة، كان لمدرس آخر يُدعى بوبرتيه، وليس ذلك بسبب دروسه في التاريخ القديم أو الأدب الفرنسي، ولكن بسبب توجيهه إياه لمطالعات خارجية فتحت آفاقا جديدة كما يقـــول[28]. فقد كان هو السبب في توجيهه لقراءة رواية التلميذ لبير بورجيه لتضاف إلى قراءاته السابقة لإبداعات كوكبة من القصاصين الفرنسيين كبيير لوتي الذي قرأ قصته لازيادي LAZYADE وكلود فريَر الذي قرأ له قصة فاقدات

السعادة LES DESCHANTEE، كما قرأ بعد ذلك سلسلة أسرة باردايان PARDAILLANS لميشال زيفاكو[29]، ثم كتاب في ظلال الإسلام الدافئة للكاتبة إيزابيل إيبرهاردت الذي كشف له شاعرية الإسلام والحنين إلى الصحراء[30]، ومقدمة ابن خلدون بترجمة سيلفستر دي ساسي، ومروج الذهب في ترجمة لا يذكر صاحبها، وكتابا لكوندياك فيلسوف القرن الثامن عشر الفرنسي الذي يمكن أن يعد شيخ مدرسة علم النفس من وجهة ما[31]، إضافة إلى مطالعات في الصحافة الجزائرية الصادرة بالفرنسية كصحيفة الإقدام للأمير خالد، وصحيفة الراية لدندن، اللذين كان أبوه يتلقاهما[32]، وقراءات أخرى في الصحافة الفرنسية التي كان يصطفي منها جريدة الإنسانية L'HUMANITE لسان الحزب الشيوعي الفرنسي، وخصوصا مقالات الكاتبين كاشان وفايان كوتوريه، وجريدة النضال الاجتماعي لفيكتور سبيلمان[33].

إن هذه القراءات جميعها كانت تسهم في تشكيل رؤية مالك بن نبي، تلك الرؤية التي أعادت صياغتها بشكل جذري من بعد تجربته في باريس، حين ذهب إليها طالبا سنة 1930، وهي السنة التي احتفل بها الاستعمار في الجزائر بمرور 100 عام على احتلالها لها. لقد كان لإقامته في باريس الدور الأكبر في تغيير وجهته، ذلك أنه ما إن وطئت قدماه باريس حتى وجد نفسه منجذبا إلى متحف الفنون والصناعات، بقرب باب سان دونيس، حيث شرع في الاهتمام بالجوانب التكنولوجية للحضارة، وهو يشاهد بين روائع المتحف القاطرة الأولى التي تحرك بالطاقة البخارية، والطائرة التي عبر عليها بليرويو بحر المانش. ومنذ ذلك الحين لم يفتأ مهووسا بالبحث عن السبيل إلى استنبات هذه التقنيات في بلاد المسلمين في إطار انبعاث حضاري حدد له شروطه ومقوماته. ولقد أوضح مالك بن نبي أنه دخل إلى قلب المدنية الغربية من بوابات ثلاث:

1 ــ بوابة وحدة الشبان المسيحيين التي انتسب إليها، وكان العضو المسلم الوحيد فيها، ولكنه تلقى فيها ما أسماه بدروس "في الفعالية، في الأسلوب، أو بكلمة

واحدة : في الحضارة"[34]. وقد مكنته تجربته هذه من الإحساس بجدوى العمل الجماعي من جهة، ومن إدراك أهمية استثمار كل ما بحوزة المرء مهما كان ضئيلا لتحقيق ما يرجوه من غايات، والمبادرة إلى الفعل دون انتظار. وفضلا عن ذلك فقد سمح له وجوده بين هذه النخبة من الشباب الفرنسي الذين انضووا تحت راية مؤسسة ذات طابع اجتماعي وروحي بعقد الصلة تلقائيا ـــ كما يقول بين القيم الاجتماعية الروحية وبين التقنية[35].

2 ـــ بوابة الأب مورو صاحب تلك السلسلة من الكتب التي كانت تصدر بعنوان : لتفهم مستهدفة تبسيط مختلف العلوم، من جبر وهندسة، وكهرباء، وطبيعة، وميكانيك... لقد غيرت هذه الكتب التي أقبل عليها مالك يلتهمها بنهم اتجاهه الفكري، لأنها أسكنت في نفسه شيطان العلوم، بل فتحت له باب عالم جديد يخضع فيه كل شيء إلى المقياس الدقيق للكم والكيف ويتسم فيه الفرد، أول ما يتسم بميزات الضبط والملاحظة[36].

3 ـــ بوابة زوجته الفرنسية خديجة التي أسلمت، ورافقته في رحلته هذه إلى عمق الثقافة الغربية، وكشفت له عن سمة يراها ضرورية في استمرار كل حضارة، وهي الإحساس بالجمال، وتجسيده في كل عمل وإنتاج.

إن مالك بن نبي ـــ كما لا يفوت القارئ الحصيف استخلاص ذلك من مذكراته، مثل التجسيد الحي للمثاقفة الفاعلة، التي سَلِمت من الوقوع في الانبهار الذي يعشي الأبصار، ويغشي على البصائر، كما حصل لكثير من مثقفي جيله. وإذا كانت ثمة عوامل عديدة من شأنها أن تيسر ذلك الانبهار، والذوبان في الثقافة المهيمنة، أو تسوغهما لو حدثا، وإذا كانت الظروف التي مرت بها الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر عصيبة، وقد شهد بعينه تهاوي كثير من بقايا هذه الثقافة الموروثة، تحت معاول الثقافة الغازية التي ما انفكت تتعقبها لتجعلها تتروي في أركان بعيدة عن التأثير في

مجريات الأحداث بشكل أو بآخر، فإن مذكراته التي ضمنها عصارة تجربته، عكست التمثل الواعي لثقافة الآخر، فقد كان تعمقه في الثقافة الأوروبية سببا في تحرره من نفوذها، ومعرفته لمصادرها ولدوافعها الخفية وبواعثها العميقة، ولا سيما أنه جمع إلى جانب الثقافة العلمية ثقافة فلسفية واجتماعية واسعة الأرجاء عميقة الأغوار[37]. ومذكرات مالك بن نبي ذاتها تعبر بوضوح عن هذا التحرر من هيمنة هذه الثقافة. فلقد حرص، بكثير من الحصافة، والألمعية، على التأريخ لمختلف التطورات الحاصلة في الجزائر، وتتبع مسار دخول منتجات التكنولوجيا إلى هذه البلاد، وهو أمر انفرد به عن غيره ممن نحوا هذا المنحى من معاصريه، دون أن يسقط في هوة الانسحاق أو يقف فاغرا فاه أمام هذه المبتكرات التي اختزلت في نظر كثير من الناس تاريخ البشرية الطويل في سنوات معدودات. فهو مثلا حين يحدثنا عن قيام بعض المقاهي بالاستغناء عن حصرها ووِجَاقها التقليدي الذي كانت تحضر به القهوة، لإحلال كراسي وطاولات وآلات جديدة لتحضير القهوة محلها، يفعل ذلك بقدر كبير من الهدوء ودون انفعالات على الإطلاق. وعندما يؤرخ لدخول أول شاحنة برليي إلى بلدته تبسة يكتفي بالقول أنه اعتقد ـ وينبغي أن لا ننسى أنه كان طفلا صغيرا آنذاك ـ هو وأقرانه، بأنها لا تقوى على تخطي باب قسنطينة[38]. وخير ما يجسد ذلك ما نلحظه من إعجاب، أحيانا، في بعض المواضع لدى تأريخه لتسرب الثقافة المشرقية إلى البلاد، على نحو ما نرى مثلا عند حديثه عن دخول أول أسطوانة مصرية إلى الجزائر، فقد علق على ذلك قائلا : "والواقع أن الأسطوانة المصرية غدت من بعد عاملا قويا في التطور النفسي والسياسي في البلاد"[39]، وما نلحظه في مقابل ذلك من رفض، كما هو ملحوظ في حديثه عن دخول أول شريط سينمائي مصري اسمه الوردة البيضاء لجورج أبيض إلى الجزائر، فقد نعته بأنه كان والحق يقال : "عملا صبيانيا"[40].

إن مذكرات شاهد القرن حافلة بالتفاصيل الدقيقة التي قدمها مالك بن نبي بين يدي شهادته، لتبليغ فكرة استنهاضية للهمم ليس في بلاده وحدها، وليس في كل

بلاد المسلمين فقط، بل في كل البلاد المستضعفة التي كانت تقارع الاستعمار الغربي لاستعادة حريتها، وبناء ثقافتها على نحو جديد. وإذا كان كثير من كتابنا في بعض بلاد المشرق قد ملأوا الدنيا حديثا عن كتاب ومثقفين حملوا راية دعوة شعوبهم إلى المثاقفة الواعية، فإن كثيرا من الملام يمكن أن يوجه إليهم لإهمالهم العناية بهذا الصوت المتفرد من الجزائر الذي غامر صوب ضفة الثقافة الأخرى على الرغم من أن حملتها كانوا يقهرون بلاده، فارتاد أعماق بحارها، ولم يتوقف عند شطآنها أو خلجانها، ليعود بلآلئ وجواهر وأصداف لم يذهب بريقها ببصره، ويذهله عن رؤية الرصيد الذي يمتلكه مجتمعه، والذي لا يمكن أن يعود بدونه إلى التاريخ !

ألا يذكرنا ما ورد في مقطع من مذكراته، لدى حديثه عن أمه المريضة التي كانت تعالج لدى طبيب فرنسي يُدعى فيغاريلا، لكنها لم تكن تقنع به، بل كانت تيمم وجهها شطر شيخ يُدعى الشيخ سليمان تتقوى على علتها ببركته التي تشد أزر علم فيغاريلا، كما كانت تنتفع بخبرة معالج يستعمل الأعشاب الشعبية، "وهكذا صارت أحسن حالا بالتعاون المتبادل بين البـــركة والطب الحديث والطب الشعبي القائم على التجارب والخبرات[41]"، ألا يذكرنا ذلك بإسماعيل بطل قنديل أم هاشم ليحيى حقي الذي عاد من لندن مزهوا بعلمه الطبي ليستخدمه في علاج ابنة عمه فاطمة من مرض أصابها في عينيها، ثائرا على أسلوب تقليدي كان متبعا في علاجها متمثلا في قطرات من زيت قنديل يوقد في مقام السيدة زينب أم هاشم فلم يظفر بنتيجة، إلى أن انتهى به المطاف إلى استخدام الزيت ذاته لتحقيق النتيجة التي أخفق أول الأمر في الوصول إليها، فواءم هكذا بين العلم والإيمان، على حد تعبير يحيى حقي، مثلما واءم مالك بن نبي بين البركة والطب الحديث والطب الشعبي، مع فارق جوهري يتمثل في كون بن نبي لم يختزل في صورته الإسلام ودوره في البناء الحضاري في مجرد البركة دون سواها.

الهوامش

1. د. علي القريشي : التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي. الزهراء للإعلام العربي. القاهرة. ط 1. 1989. ص 32.
2. مالك بن نبي : مذكرات شاهد القرن ــ الطالب. دار الفكر. بيروت. ط 1. 1970. ص 27.
3. د. أسعد السحمراني : مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا. دار النفائس. بيروت. ط 2 . 1986. ص 17.
4. زكي أحمد : مالك بن نبي ومشكلات الحضارة. دار الصفوة. ط 1. 1992. ص 48.
5. محمد عبد السلام الجفائري : مشكلات الحضارة عند مالك بن نبي. الدار العربية للكتاب. ليبيا ــ تونس. 1984. ص 56.
6. مالك بن نبي : مذكرات شاهد القرن. بإشراف ندوة مالك بن نبي. دار الفكر. 1986. ص 8.
7. د. عبد العزيز شرف : أدب السيرة الذاتية. الشركة المصرية العالمية للنشر. القاهرة ــ لونجمان. ومكتبة لبنان. بيروت. ط 1. ص 7.
8. مالك بن نبي: مذكرات شاهد القرن. بإشراف ندوة مالك بن نبي. دار الفكر. 1986. ص 8.
9. المصدر نفسه. ص 14.
10. المصدر نفسه. ص 13.
11. المصدر نفسه. ص 14.
12. المصدر نفسه. ص 15.
13. المصدر نفسه. ص 18.

14. المصدر السابق. ص 16.
15. المصدر نفسه. ص 76.
16. المصدر نفسه. ص 106.
17. المصدر نفسه. ص 106.
18. المصدر نفسه. ص 78.
19. المصدر نفسه. ص 78.
20. المصدر نفسه. ص 140.
21. المصدر نفسه. ص 107.
22. المصدر نفسه. ص 107.
23. المصدر نفسه. ص 149.
24. المصدر نفسه. ص 108.
25. المصدر نفسه. ص 109.
26. المصدر نفسه. ص 109
27. المصدر نفسه. ص 110.
28. المصدر نفسه. ص 107.
29. المصدر نفسه. ص 111.
30. المصدر نفسه. ص 149.
31. المصدر نفسه. ص 198.
32. المصدر نفسه. ص 140.
33. المصدر نفسه. ص 153.
34. المصدر نفسه. 43.
35. المصدر نفسه. ص 35.
36. المصدر نفسه. ص 31.

37. د. أسعد السحمراني : مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا. دار النفائس. بيروت. ط 2. 1986.

38. مالك بن نـــبي : مذكرات شاهد القرن. ترجمة مروان القنواتي. دار الفكر. ط 1. 1969. ص 58.

39. المصدر نفسه. ص 176.

40. المصدر نفسه. ص 333.

41. المصدر نفسه. ص 180.